المحاضرة الثالثة

من التحليل النفسي إلى الأنثربولوجيا

مقدمة:

يشكل الإنسان جوهر التداخل والقاسم المشترك بين مختلف العلوم الإنسانية والإجتماعية، فهو بحكم شخصيته وتكوينه الثقافي يعطي أولوية لعلم النفس والأثربولوجيا لدراسة هذه الشخصية التي تعد ثمرة التعاون بين العلمين، فمرة يكون علماء النفس بحاجة الى معرفة البيئة الثقافية التي تكونت فيها الشخصية، ومرة أخرى يكون علماء الأنثربولوجيا بحاجة الى معرفة أدق المواصفات النفسية التي تتكون منها هذه الشخصية، لأجل هذا نشأت العلاقة المثمرة والبناء بين الفريقين الغرض منها فهم طيعة هذا الكائن البشري.

1- خلفية العلاقة بين الأنثربولوجيا وعلم النفس:

يعتبر موضوع الإنسان وثقافته محور الدراسات الأنثروبولوجية قديما وحديثا، فالأنثروبولوجيا " علم الإنسان" تهتم بدراسة تصرفات الكائن البشري وممارساته وسلوكياته في إطارها الثقافي. ويفترض أن الفيلسوف اليوناني أرسطو يعتبر أول من استخدم مصطلح الأنثروبولوجيا للإشارة إلى الشخص الذي يتحدث عن نفسه. فقد ظهر هذا المصطلح لأول مرة باللغة الإنجليزية في كتاب مجهول الاسم يناقش فيه طبيعة الإنسان، حيث قسم العلم إلى قسمين، الأول يهتم بعلم النفس والثاني بعلم التشريح غير أن هذا التقسيم كان يعتبر بعيدا عن الدراسة الأساسية التي تحتم بها الأنثروبولوجيا حاليا، وفي سنة 1533 استخدمها العالم كابيلا capellaبشكل قريب من الاستخدام الحديث لها، ركز فيها على دراسة الصفات الشخصية المميزة للإنسان ومن تمت يصعب دراسة الشخصية الإنسانية بعيدا عن المؤثرات السيكولوجية والمشاعر والعواطف والميولات الذاتية، فهي عبارة عن مزيج من الخصائص والمميزات والمواقف التي تختلط فيه العناصر الكامنة في الذات الإنسانية بالعناصر المكتسبة، وهذا ما يجعل فهم السلوك الإنساني يتطلب تحليلا عميقا للبناء الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه الفرد، وأيضا تحليل الذات الإنسانية وتحديد ردود أفعالها وتصرفاتها إزاء مواقف مختلفة. فعندما بدأت الأنتروبولوجيا تعرف معناها الحقيقي منذ منتصف 193، وعندما ارتبطت بالحركة الاستعمارية اقتصر دور الباحثين الأنتروبولوجيين في هذه الفترة على دراسة الشعوب المستعمرة التعرف قبل كل شيء على طبائعها وخصائصها، ومالي الشخصية، وذلك من أجل معرفة أدلى الحالات النفسية والاستعدادات الفردية لتقبل السيطرة الاستعمارية، حيث تختير الدراسات من هذا الصنف دراسات الت بالحالات النفسية للشعوب المستهدفة للاستعمار الغربي على وجه الخصوص (فيليب لوكا، جون كلود لوكان، 2002). إن نجاح الاستعمار في المجتمعات التي كان يريد غزوها كان يفرض على العسكري والأنثروبولوجي اللذان يقدمان خدمة للاستعمار أن يكونا عالما نفس، قبل أن يكونا عالما

ثقافة وحرب، وهذا من أجل كسب ثقة الشعوب التي تخضع للدراسة، فليس من السهل أن يندمج شخص أجنبي ضمن أشخاص آخرين والعيش معهم في جو من الاطمئنان والراحة النفسية إلا باستعمال تقنيات وطرق ملائمة تسمح بمعرفة الميول والمزاج والطبائع لكي يتسنى له أن يتصرف إزاءها على أساس أنها معطيات أساسية.

2- السلوك الإنساني موضوعا لملاحظة الأنثروبولوجي:

إذا كانت الثقافة تعتبر من الموضوعات الجوهرية في الدراسات الأنثروبولوجية فإن نواة هذه الثقافة هي السلوك الإنساني، وهذا ما ذكرهالعالمان الأمريكيان كلا كهو بوكروبر، وقد ذكر أيضا العالم هويلHoeble عندما تطرق إلى هذا الجانب على السلوك المكتسب حيث تعرف الأنتروبولوجيا الاجتماعية بأنها الدراسة التكاملية المقارنة القائمة على ملاحظة السلوك الإنساني في مضمونه الاجتماعي أي مواقف الإنسان وتصرفاته إزاء النظام الاجتماعي، وهذه الملاحظات التي تجريها الباحث الأنتروبولوجي يلاحظ فيها الإنسان في علاقته بغيره من الناس أثناء العمل وفي مواقف الفرح والحزن والتجميع والانفراد ..إلخ، وتحاول تحليل ذلك بالطرق والمناهج التي تناسب كمل موقف القيد العددات الاتجاهات المطرية في دراسية الأنثروبولوجيا لدى الرواد الأوائل أمثال راد كليف براون، مالينوفسكي، مورجان الج، فوضعوا مناهج ومواعيد أساسية المقام الباحث على فهم هذا العلم، ونظيرته عبر مراحل تطور البشرية من المجتمع المداني إلى الجميع المنظور الصناعيا، مما يعب من شاه الاتحاطات التي الشغل بها الأنثروبولوجيون واعتمادها عليها في تحليل وفهم الثقافات وتصرفات الأفراد وسلوكيات الاتحاد النفسي.

3- مفهوم الإتجاه النفسي في البحث الأنثربولولجي:

يركز الاثنوغرافيونو الأنثروبولوجيون أثناء دراسة البناء الثقافي والاجتماعي لمختلف الشعوب على معرفة الآليات والحوامل التي تساهم في تفعيل أو تجميد عملية التغير الاجتماعي والثقافي، فهم لا يكتفون بالوصف بل يلجأون إلى طرق تحليل مناسبة لفهم عوامل التغير التي تمر بها المجتمعات، ويحاولون أن يتعرفوا إلى جانب الاختلافات في الملامح السلالية بين الشعوب على الهويات الشخصية والسلوك الفردي والجماعي والحالات النفسية للأفراد والجماعات مهما كان مستواها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي. يفهم من ذلك أن كل المجتمعات البشرية قديمها وحديثها تعتبر مواضيع لدراسة الأنثروبولوجيا دون استثناء، لأنها جميعا تدخل ضمن الصيرورة التاريخية، وهذا عكس النظرة الخاطئة لبعض الإثنوغرافيين الذين قسموا الشعوب البشرية إلى شعوب تاريخية وأخرى غير تاريخية .

لقد حاول علماء الأنثروبولوجيا الاستفادة من التحليل النفسي لفهم طالع وعادات الشعوب، واختلافاتهم في ردود الأفعال والرغبات وقدرهم على التعليم والتفاوت في الذكاء، وهذا ليساعدهم على عديد الفروق والاختلافات في إطار دراستهم المقارنة. وقد زاد اهتمامهم من

اختلافات بهذا الميدان لما رأوه من أختلافات وفوارق في الشخصيات خاصة في المجتمعات البدائية، وتبين لهم أن الثقافة السائدة في كل مجتمع تمارس تأثيرها على تصرفات الأفراد وحركاتهم وعلاقاتهم، فمن ناحية علاقة الثقافة بمزاج الأفراد تبين لهم أن الثقافة تمارس تأثيرها على الفرد وتظهر في الاستعدادات والانفعالات الميتولوجية والعصبية، والتي تظهر صورة انفعالات الشخص وردود أفعاله المختلفة.

4- الأنثربولوجيا السيكولوجية:

تحاول هذه المعرفة أن تبين تأثير العوامل النفسية في العمليات الثقافية وتدرس الممارسات الثقافية في العمليات السيكولوجية مثل الإدراك الانفعالات الاتجاهات الشخصية. ويعتبر موضوع الثقافة والشخصية من أهم المواضيع التي بذل فيه العلماء جهدا كبيرا لدراسة العلاقة ما بين الثقافة وعلم النفس، فقد كان اهتمام هؤلاء العلماء تابعا من نظرية التحليل النفسي عند فرويد

استخدم هذا التحليل في دراسة المجتمعات ذات الثقافة المغايرة والمختلفة عن الثقافة الغربية سواء كانت مجتمعات بدائية أو متحضرة، وفي مثل هذا الاعتماد قام مالينوفسكي بتوضيح حول عقدة أوديب التي وصفها فرويد بأنها نوع من العلاقة الجنسية التي تربط بين الطفل الذكر وأمه، وهي نوع من الغيرة تجاه والده، حيث بين مالينوفسكي أن هذه العقدة لا توجد في مجتمع التروبرياند، وهي ليست عامة على جميع المجتمعات والأفراد كما يعتقد فرويد. وفي سياق هذا التوضيح يقول مالينوفسكي أن مجتمع التروبرياند كان أمومي النسب، أي أن العلاقات القرابية مبنية على سلطة الأم وأقاربها، فكانت سلطة الأخ (الحال) أقوى من سلطة الأب وطوطم تحريم الزنا كانت أقوى تجاه الإخوة والأخوات بدل الأمهات والأبناء، حيث كانت المنافسة شديدة بين الأبناء والحال الله في الوحدة القرانية للأم كما هو ا الحال في عقدة أوديب

ونظرا لاشتداد الاهتمام بنظرية الثقافة والشخصية اتجهت الأنثروبولوجيا السيكولوجية بعد عام 1950 نحو اتجاهات جديدة استخدمت فيها الإحصاء من أجل معرفة الارتباطات بين ممارسات تربية الطفل والشخصية وبين الأنماط الثقافية المختلفة. حيث تم استخدام عينات كثيرة من ثقافات متقاطعة المحاولة توضيح العلاقات الاجتماعية المتداخلة والمعقدة في عملية التربية.